الحجر العسكري في الاندلس (١٣٨-٤٨٤هـ /٧٥٦ -١٠٩١م)

الباحثة. آيات قاسم فالح أ.د. انسام غضبان
كلية الآداب / جامعة البصرة
journalofstudies2019@gmail.com

الملخص:

يمكن تعريف الحجر بأنه المنع والحظر. وتعددت انواع الحجر بين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وكان احد انواعه كذلك الحجر العسكري الذي يتم اثناء الحروب على المدن، اذا تحاصر المدن ولايسمح لاحد بالدخولها او الخروج منها.

الكلمات المفتاحية: (الحجر العسكري، الاندلس، تحاصر المدن).

Military quarantine in Andalusia

(138-484 AH / 756-1091 AD)

Ayat Qassem Faleh Prof. Dr. Insam angry
College of Arts / University of Basra

Abstracts :

Quarantine can be defined as prevention and prohibition. There are many types of confinement between economic, social and political, and one of its types is military confinement, which is carried out during wars on cities, if they are besieged and no one is allowed to enter or leave them.

Keywords: (military quarantine, Andalusia, besieging cities).

المقدمة:

يعد الحجر احد اقدم الوسائل التي يجدها التتبع اثناء دراسة تاريخ الاندلس، اذا تعددت انواع الحجر بين الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والعسكري، وسنتاول في هذه الدراسة الحجر العسكري. يعد الحجر العسكري أحد الوسائل التي كان يستخدمها أصحاب السلطة أثناء الحروب اذا تتم محاصرة المدينة من جميع جوانبها ومنع اي محاولة لانقاذها اذا يمنع الدخول اليها او الخروج منها حتى يصيبها الضرر ثم تذعن للاستلام وبالتالي تسليم المدينة للعدو .وقد تعرضت مدن الاندلس لعدة محاولات لحصارها من قبل الاسبان، اعتمدت هذه الدراسة المنهج التاريخي وتم تقسيمه الى ثلاث مباحث ،المبحث الاول الحصار العسكري لمدن وسط الاندلس ،المبحث الثاني الحصار العسكري لمدن شرق الاندلس، المبحث الثالث الحجر العسكري لمدن غرب الاندلس وقد تم الاعتماد على مجموعة من المصادر والمراجع التي تغني البحث بالمعلومات ،اذ تم الاعتماد على الكتب التاريخية العامة ثم كتاب البيان المغرب في اخبار

الاندلس والمغرب لأبن عذاري المغربي وكتاب تاريخ افتتاح الاندلس لأبن القوطية. وكذلك تم الاعتماد على كتب التراجم المهمة مثل كتاب جذوة المقتبس في ذكر ولاة الاندلس للحميدي و كتاب الصلة في تاريخ ائمة الاندلس لابن بشكوال. كما لايمكن اغفال اهمية كتب الجغرافيين في هذه الدراسة اذ تم الاعتماد على كتاب المسالك والممالك لأبو اسحاق الاصطخري وكتاب نزهة المشتاق في اختراق الافاق للأدريسي وكتاب صفة جزيرة الاندلس للحميري .اما المراجع التي زودتنا بالمعلومات الهامة فهو كتاب دولة الاسلام لعبدالله عنان.

الحجر العسكري في الاندلس (١٣٨-٤٨٤هـ/٧٥٦-١٠٩١م)

شهدت الاندلس منذ بداية عصر الولاة اوضاعاً سياسية اختلفت ما بين صراعات داخلية على السلطة او صراعات خارجية بين دولة الاسلام والممالك المسيحية الشمالية. كانت أوضاع الحرب غالباً ما تفضي الى صدام عسكري، تلتقي فيه اطراف النزاع من المتخاصمين، ولم تكن تلك الصدامات تمر دون ان تترك أثارها السيئة على كل ما حولها.

كانت المدن الأندلسية أحد ابرز الخسائر في هذه الحروب، ولعل أكثر ما كان يفتك بتلك المدن وينهكها هو الحصار، ويبدو ان الحصار نوع من أنواع الحجر الذي يُمكن ان نطلق عليه الحجر العسكري، إذ كان من اكثر الوسائل المستخدمة في الحروب لاجبار المدن على الاستسلام من خلال سكانها داخل مدنهم، وقطع المؤون والامدادات عنها (المقري، ١٩٩٧) (عنان، ١٩٩٠) (الحسيني، ٢٠٢١)، وقد استخدم هذا الاسلوب في الحروب منذ اقدم العصور وهو ان كان يحتاج الى وقت طويل وانتظار قد لا يطيقه الجيش المحاصر للمدينة، الا ان ذلك الانتظار قد يأتي بثمار باعلان الاستسلام، والقبول بشروط مذلة من أجل الحفاظ على حياة السكان او قد ينكث المحاصرون بوعودعم للسكان بقتلهم والتنكيل بهم (المقري، ١٩٩٧) (الناصري، د . ت).

كان حصار المدن (الحجر العسكري) يُستخدم مع المدن التي تمتلك تحصينات قوية تمنع من اختراقها بسهولة بسبب قوة اسوارها، ومنعة واحكام ابوابها. لقد كان بناء الاسوار في تلك الازمنة يعد من أهم جزئيات البنى التحتية لانشاء المدن القديمة، كانت المدن الأندلسية وبخاصة المدن الكبرى التي حضيت باهتمام خاص من قبل الحكام تحاط باسوار منيعة، ولقد احتفظت من المد ن الأندلسية باسوارها القديمة قبل الفتح الاسلامي والتي يعود بعضها الى العصر الروماني والقوطي. كانت تلك الاسوار في اوقات الغزو تصبح هدفاً الاعداء، فأن لم يستطيعوا اختراقها لجئوا الى حصار المدنية حتى تستسلم (الحسيني، ٢٠٢١). ومن المدن التي تعرضت للحجر العسكري هي:

المبحث الاول: الحصار العسكري لمدن وسط الاندلس.

- قرطبة:

تعد قرطبة من مدن الاندلس العظيمة لتميزها بعمرانها، ووجود الاسواق والمساجد فيها، بالإضافة الى سعة مساحتها، وهي ذات حصانة متينة، فلها سوراً من الحجار، وابنيتها مشتبكة مستديرة على البلد

من جميع جهاتها يجعل قرطبة اكثر تحصيناً، وفي جنوبها الطريق المعروف بالرصيف والاسواق، والخانات والحمامات، ولقرطبة سبعة ابواب محكمة من الحديد، مما زاد هذا من متانة عمارتها وتحصينها، فقد جعلها المسلمون عاصمة لهم لكونها مدينة تقع وسط الاندلس وطولها من حدودها الغربية الى الشرقية ثلاثة أميال (حوقل، د . ت) (الادريسي، ١٤٠٩) (ياقوت الحموي، د . ت)، خربت قرطبة بسبب الاحداث التي سميت بالفتنة البربرية التي ادت بها الى الضعف، اذ كان البربر قد دخلوا الاندلس منذ ايام الفتح، ويعود هذا لسهولة عبورهم من المغرب الى الاندلس، وتوفر الخيرات في هذه البلاد، كما ان لمراء بني أمية قد اعتمدوا على البربر في الجيش الاندلسي لتفوقهم في العدد على العرب (المقري، ١٩٩٧) (عبد العزيز، ١٩٩٧).

اصبحت هناك صراعات بين العرب والبربر بعد سقوط الدولة العامرية وقتل عبدالرحمن شنجول العامري سنة (٣٩٩هـ/١٠٠٩م) ثم جاء محمد هشام بن عبدالجبار المعروف (بالمهدي) وهو احد خلفاء الاسرة الاموية، فقام باستبعاد البربر واعتمد على عامة الناس دون البربر، إذ كان شديد الكراهية للبربر فقام البربر بالالتفاف حول سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر المسمى (بالمستعين) فدخل الى قرطبة ومنعها عن المستعين والبربر بحفر خندق حولها (شبارو، ٢٠٠٢). الا انه سرعان ما اظهر الناس السأم من سياسته، فقام واضح الفتى عليه، فارجع هشام المؤيد لكرسي العرش بعد ان كان محجوراً وبقي البربر محاصرين لقرطبة سنة (٤٠١هـ/١٠١٠م) فاقتحموا المدينة بعد محاصرتها وعانوا فيها خراباً، وساءت احوالها فدخلوها يترأسهم المستعين سنة (٤٠٣هـ/١٠١٣م) (ابن خلدون، ١٩٨١) (شبارو، ٢٠٠٢).

ثم استولوا على قرطبة وقتلوا هشام المؤيد، فعمد المستعين عندما تولى الحكم بتسليم حكم المدن الى البربر عندما تمت السيطرة لهم، إذ منحهم المستعين بعض السيطرة والقوة، انقلبت الامور ضده فيما بعد إذ قام علي بن حمود واخوه القاسم بالوقوف بوجه المستعين وقتله ومن ثم السيطرة على حكم قرطبة سنة (٤٠٧هـ/١٠١٦م) (ابي الخطيب، ١٩٧٥).

تولى القاسم بن حمود حكم قرطبة للمرة الثانية سنة (٤١٣هـ/١٠٢٢م) وقد دعي له بامير المؤمنين، الا انه لم يدم هذا طويلاً، فقد ثار الناس ضده، وحاصروه في قرطبة نيفاً وخمسين يوماً في خضم هذه الاحداث تعرضت المدينة للحصار لمرات عديدة كانت من ويلات وعاث البربر بما حولها من ثروات واقوات فنسفت مزروعاتها وفقدت اقواتها (الحميدي، ١٠٩٥) (عذاري، ٢٠١٣) (ابي الخطيب، ١٩٧٥).

وفي عصر الطوائف حوصرت قرطبة سنة (٤٦١هـ/١٠٥٩م) عندما طمع المأمون بن ذي النون بقرطبة الجهاورة التي كانت بقيادة عبدالملك بن جهور، فحاصرها المأمون، وضاق الحال بقرطبة واهلها، ولم يكن على عبدالملك بن جهور الا لحفاظ على ملك الجهاورة في قرطبة وابعاد الخطر عن دائرة حكمه، فعمد الى الاستنجاد بالمعتمد بن عباد نظراً لوجود بعض العلاقات الدبلوماسية الودية بين

الطرفين، يبدو ان ابن عباد كان يبتغي من هذه العلاقات بسط السيطرة على الممالك الاندلسية الاخرى دون انقلاب اصحابها عليه او الشك به، فسرعان ما ارسل النجدة الى عبدالملك بن جهور لابعاد خطر المأمون قطع بالاستيلاء على قرطبة ، ومن ثم محاصرتها من قبل قواته الذين قتلوا اهلها وخربوا ارضها فتم حصارها الى ان استسلمت واصبحت في قبضة ابن عباد (ابن بسام، ١٩٨١).

- طليطلة:

كانت طليطلة قاعدة القوط ومملكتهم التي تبعد عن قرطبة تسع مراحل، ومنها الى بلنسية تسع مراحل تم فتحها من قبل المسلمين على يد طارق بن زياد سنة (٩٣هـ/٧١١م) تميزت بوجود قنطرة عظيمة فيها حتى قيل عجز الواصفون عن وصفها (ابن الاثير، ١٢٣٢) (الحميري، ١٩٨٨)، كما ان طليطلة تقع على نهر تاجة فوق المنحدر الصخري الوعر المشرف على منخفض النهر محيط بها من كل نواحيها تقريباً (عنان، ١٩٩٠). وقد لمع نجم طليطلة في عهد ملوك الطوائف عندما اتخذها بنو ذي النون مدينة لهم، إذ تعتبر طليطلة الحاجز الرادع امام قوات الممالك الاسبانية الشمالية فهي تقع غربي ثغر الروم، وامتد نفوذها في عهد المأمون بن ذنون عند سيطرته على بلنسية شرقاً وضمها الى طليطلة سنة (٤٥٧هـ/) كما اهتم المأمون بن ذنون بعمران هذه المدينة فبنى القصور ولها اسواراً منيعة تزويدها قوة وحصانة (الادريسي، ١٤٠٩) (ياقوت الحموي، د . ت) (السامرائي وآخرون، د . ت).

تعرضت طليطلة للحصار (الحجر) مرات عدة، وكان السبب وراء ذلك هو الاحداث السياسية التي ربت بها هذه المدينة، فقد تم الحجر عليها في عهد الامير عبدالرحمن الداخل سنة (١٤٧هـ/٧٦٤م) عندما ثار فيها (هشام بن عذرة) (المقري، ١٩٩٧)، فقد قام عبدالرحمن الداخل بارسال مولاه بدراً يرافقه (تمام بن علقمة) (ابن الابار، ١٩٨٥) (عذاري، ٢٠١٣) لحصار طليطلة، فتم حصارها والتضييق عليها، ويتطرق ابن عذاري الى حصار طيلطلة بقوله: ((فحاصراها حتى سلم أهل طليطلة الحصار...)) (عذاري، ٢٠١٣) فكانت اهل طليطلة تماماً وبدراً وسألوهما الامان على ان يسلموا لهما ابن عذرة، فتم تسليمه مع حق سانده، واخذ بالسلاسل وتم رفع الحصار عن قرطبة حسب الاتفاق المعهود (عذاري، ٢٠١٣).

شهدت طليطلة خلال حكم الامير الحكم بن هشام بن عبدالرحمن الداخل الذي تولى الحكم سنة (١٨٠هـ/٧٩٦م) ، الحصار اكثر من مرة، فيذكر (ابن الاثير) (ابن الاثير، ١٢٣٢) ان الحكم الربضي على حرب وقتال مستمرين باهل طليطلة وحاصرهم في مدينتهم وتأديبهم ويذكر ان السبب وراء هذا ان اهل طليطلة لم يكونوا ينصاعوا لحكم احد من الامويين، مستقلين بانفسهم ، وخيرات ارضهم، معتمدين اعمالهم وتجارتهم الخاصة، وكانوا اهل غنى، مترفين، يخشون على حياتهم الهادئة من الضياع خاصة ايام الحكم الربضي لاتصافه بالاسراف والقسوة والظلم. يبدو ان هذا واضحاً من خلال ما قام به من مذبحة بحق اهل الربض (رحومة، ١٤٤١).

ثار في طليطلة (عبيدة بن حميد) فارسل الحكم الربضي الى قائده في الثغور (عمروس بن يوسف) سنة (١٨١هـ/٧٩٧م) للقضاء عليه فكاتب عمروس بعض طليطلة وخدعهم بتصنعه انه معهم لا مع الحكم وسيساندهم ويقف معهم، فعمدو اهل طليطلة الى قتل عبيدة وارسال رأسه الى عمروس، ثم كاد بهم عمروس وقتلهم (عذاري، ٢٠١٣).

ثم سحب الحكم ثقة اهل طليطلة اليه من اجل غاية ادخال احد قادته والحجز على المدينة واهلها، حيث عمد الى حيلة، ان ارسل اليهم مولداً منهم وهو عمروس بن يوسف لان اهل طليطلة كانوا من المولدين فكتب الحكم اليهم ((أنني قد اخترت لكم فلاناً، وهو منكم لتطمئن قلوبكم اليه واعفيتكم ممن تكرهون من عمالنا ومواليا، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم...)) (النويري، ١٤٢٣) (عنان، ١٩٩٠) يبدو من خلال ما تقدم ان اهل طليطلة كانوا غالباً ما يعترضون على عمال الحكم الربضي لاعتدادهم بانفسهم ولرغبتهم بتوليه رجال من ابناء جلدتهم من المولدين ولعلهم ارادو من ذلك ما يحقق لهم شيئاً من الاستقلال الذاتي ونوعاً من حسن المعاملة التي قد يجدونها مما يختارون من انفسهم لا ممن يعينه الامير الحكم من موظفي الدولة عنده، ثم عمد عمروس بن يوسف الى مدينة طليطلة وشيد قصراً على باب طليطلة، حيث احتفر ارضية هذا القصر لبناء جدران قصره، ثم دعى وجهاء طليطلة ومواليها، واوهمهم اذ اكل منهم قوم انصرفوا من الباب الاخر غير الذي دخلوا منه وكان كلما دخل جماعة قتلوا، حتى فطن بعض شيوخهم الى البخار المرتفع فقال: ((هذا والله بخار الدماء، لا بخار الطعام...)) فكان هذا اشد واخطر حصار للتخلص من وجهاء طليطلة (ابن الاثير، ١٢٣٢) (عذاري، ٢٠١٣) (النويري، ١٤٢٣).

اراد الامير الحكم بن هشام ضم طليطلة الى حمودة، فقد كانت مستقلة بنفسها، فخرج بحكم بحجة غزو (تدمير) (ياقوت الحموي، د . ت) (الحميري، ١٩٨٨)، وهو يريد ان يوهم اهل طليطلة بأنه مشغول عنهم بتدمير، فاسترسلوا في اعمالهم دون اخذ الحيطة، وكان الحكم قد وضع العيون عليهم، فنزل بتدمير ولما وجد الفرصة سانحة له سار الى طليطلة، فدخلها ليلاً خفية دون ان يشعر به احداً، إذ كانت ابوابها مفتوحة ففرض الحصار عليها، وقطع الخروج منها او الدخول اليها، ثم حرق الديار وهجر اهلها الى الصحراء، ثم ارجاعهم فيما بعد، فكانت هذه ضربة قوية لأهل طليطلة بان لا يعارضوا الحكم ولا يقفوا بوجه حكمه وتملكه (عذاري، ٢٠١٣).

شهدت طليطلة الحجر خلال حكم الناصر الاموي، فبعد ان خلف الامير عبدالله (٣٠٠هـ/٩١٢م) الامير عبدالرحمن الذي لقب نفسه بالناصر لدين الله، وقد تميز بين من سبقه من اسلافه من الامويين بتحويل الدولة الاموية من الامارة الى الخلافة واطلق على نفسه لقب الخليفة، ولا يخفى على هكذا دولة قوية من احتدام جهات معينة ووقوفها ضد توسع رقعتها وانضمام ممالك اخرى اليها. فقد ثارت طليطلة باهلها، كما فعلت في عهد الحكم فلم تكن تقبل الانصياع والاذعان لحكم الامويين، فارسل عبدالرحمن الناصر اليهم وزيره (سعيد بن المنذر) (ابن حزم، ١٩٦٢)، فدخل طليطلة وفرض الحصار عليها عام (٣١٨هـ/٩٣٠م) ودام حصارها ٣٧ يوماً، قد ضيق عليهم واتلف ثمارهم

وزروعهم الا انها قد اظهرت المقاومة مما ادى الى استمرار الحصار ما يقارب العامان، حتى اذعنت له سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م) بعد ان ستنزفت مواردها وطاقتها اثناء صمودها (عذاري، ٢٠١٣) (عنان، ١٩٩٠).

تعرضت طليطلة الى الحصار (الحجر) خلال عهد الطوائف، ففي عهد يحيى بن ذنون، وهو حفيد المأمون بن ذنون، إذ تولى حكم طليطلة بعد موت جده سنة (٤٦٧هـ) وقد كان يحيى شخصاً ضعيفاً، تتقاذفه الاراء دون ان يكون له موقفاً حازماً، مما ادى الى تتابع الاحداث عليه، إذ ثار عليه اهل طليطلة، ودخل في صراع معهم وكان السبب وراء هذا، أنهم قد أشتكوا من دفع الاموال التي تسلم الى النصارى، فعمدوا اهل طليطلة الى الاستنجاد (بالمتوكل) (ابن خاقان، ١٨٦٦) (ابن شاكر، ١٩٧٣)، فدخلها سنة (٤٧٢هـ/١٠٧٩م)، ثم رجع بعد عشرة اشهر لعدم صموده امام هذه الاحوال، فقد أثقله قلة الاموال ومضايقة النصارى له وحصار المدينة جراء اتفاق ابن ذنون معهم لاسترجاع طليطلة (ابن بسام، ١٩٨١) (ابي الخطيب، ١٩٧٥).

لم يكن على يحيى بن ذي النون الاستعانة بالنصارى، فقد استصرخ ملك قشتالة الفونسو السادس (اذفونش) لاسترجاع طليطلة مقابل دفع مبالغ كبيرة له، وعندما عاد القادرين ذي النون الى طليطلة، عامل اهلها بقسوة، وترك العدل حتى تجرأ القوي على الضعيف، واصبح الرجل يخاف وهو بين اهله واهملت مصادرها الاقتصادية وتعطل تقدمها في الانتاج (ابن بسام، ١٩٨١) (السحيباني، د . ت).

دخل الفونسو الى طليطلة في الوقت الذي دخلها ابن ذنون واخذ بالتضييق على اهلها، إذ حاصرها واستبد بها الى ان اذعن له اهل طليطلة بالاستسلام، وخروج يحيى بن ذنون الى بلنسية بأمر ملك قشتالة (ابي الخطيب، ١٩٧٥). كانت طليطلة حينها قد عانت من الضغط ونقص المؤن اضطراب امورها ودب الخوف بينهم، دون ان يبادر اي ملك من ملوك الطوائف الاخرى من مساعدتها ومد يد العون لها، الى ان تم تسليم طليطلة الى الفونسو سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٤م) (بيضون، ١٩٨٦) (السحيباني، د . ت). فسقطت طليطلة بعد حصار دام سبع سنين، وكان سبب سقوطها بيد النصارى هو معرفة معاقلها، ونقاط الضعف والقوة فيها، وكان سبب ذلك هو ايواء طليطلة للاذفونش الفونسو السادس بن فردلند ايام نفيه من قشتاله (عذاري، ٢٠١٣)، إذ كان جد يحيى قد اسكنه عنده في طليطلة، فعرف مطباتها وقوتها، فقد استمع الفونسو ذات يوم الى حديث المأمون وهو يتظاهر بالنوم، عن كيفية الدفاع عن طليطلة حين هجوم النصارى لها، فاجاب احدهم بأن النصارى لا يقدرون على ايذاء طليطلة الا اذا كانوا تحملوا حركة سبع سنين في تخريبها، وانفاد خيراتها، وقد فعل هذا الفونسو حيث استغرق سبع سنين لاتلاف محاصيلها وتدميرها (الحجي، ١٩٨١).

عندما تم عبور امير المرابطين يوسف بن تاشفين الاندلس بعد ان استغاث به ملوك الطوائف (عذاري، ٢٠١٣)، وقد بادر يوسف بن تاشفين المرابطي الى حصار طليطلة لانقاذ المدينة من ايدي الفونسو السادس الاذفونش سنة (٤٨٣هـ/١٠٩٠م)، وقد شدد المرابطون الحصار عليها، وانتسفوا خيراتها،

ودمروا اسوارها وابنيتها (الناصري، د . ت). دام الحصار على طليطلة ما يقارب سبعة ايام، الا انهم بعد هذا الحجر الشديد على المدينة، باءت محاولاتهم بالفشل للحصول عليها واخذها من ايدي النصارى لصمود النصارى وهزيمتهم للمرابطين، ولمناعة المدينة (عنان، ١٩٩٠) (الحجي، ١٩٨١).

المبحث الثاني: الحصار العسكري لمدن شرق الاندلس.

- بلنسية:

تعرضت مدينة بلنسية الى الحصار (الحجر العسكري) ابان العصر الاسلامي، ولما لا شك فيه ان اهمية موقعها قد دفع الى تكالب الاطماع حولها، فهي قاعدة من قواعد الاندلس المهمة، اذ تقع بلنسية شرق الاندلس وتبعد عن قرطبة ستة عشر يوماً، تكثر فيها الخيرات والعمران، وتقع على البحر الابيض المتوسط (الحميري، ١٩٨٨).

ومن الجدير بالذكر ان بلنسية كانت تجاور مملكة سرقسطة وقد غلب العنصر الصقلبي على سكانها، اذ وقعت تحت حكم الفتيان مظفر ومبارك العامريان ثم ال حكمها الى (عبدالعزيز بن عبدالرحمن) (عذاري، ٢٠١٣) (ابن بسام، ١٩٨١) حفيد المنصور بن ابي عامر بالذي خلفه عبدالملك المظفر (٤٠٣هـ/١٠٦١م) والذي تزوج من ابيه المأمون بن ذي النون حاكم طليطلة (عذاري، ٢٠١٣)، وقد آل حكم المدينة بعد احداث وقعت بين المعتصم والمأمون الى ضم المدينة بلنسية واعمالها الى مملكة طليطلة، وعندما توفي المأمون بن ذي النون خلفه في حكم المدينة حفيده القادر بن ذنون عام (٤٧٦هـ/١٠٨٣م)، ولم تلبث المدينة ان اصبحت ميداناً للصراع بين بني هود وحكام طليطلة بزعامة القادر بن ذنون ذلك بعد سقوط طليطلة بيد الفونسو السادس ملك قشتالة الذي وعد ابن ذنون بمساعدته في الاستيلاء على مدينة بلنسية بعد اخراجه من طليطلة (عنان، ١٩٩٠).

ظهرت شخصية مسيطرة طاغية، سيطرت وطبقت على بلنسية وهو (القنبيطور) (عذاري، ٢٠١٣) (ابي الخطيب، ١٩٧٥) (المقري، ١٩٩٧) (الحسيني، ٢٠٢١)، كان في ذلك الوقت يحكمها القاضي (أبي احمد بن جحاف) (الضبي، ١٩٨٩) (الزركلي، ٢٠٠٢) عندما اختاره اهل بلنسية حين قيام ابن ذنون باحتلال بلنسية، ثم قتل القاضي ابن جحاف ذنون، وحكم بلنسية الا انه سرعان ما انقلبت الامور ضده، فقد حاصر بالقنبيطور القشتالي بلنسية واهلكها من شدة حصارها، إذ منع عنها المؤون وعمد الى تدمير اقتصادها، ودام حصاره لها سنة (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) عشرين شهراً، إذ دخلها بحجة الصلح والمساعدة، الا انه عاش فيها فساداً، وحجرها بابشع الطرق حتى اخذ اهلها يأكلون الحيوانات كالفئران والكلاب (ابي الخطيب، ١٩٧٥) (المقري، ١٩٩٧) (الزركلي، ٢٠٠٢).

يبدو ان القاضي ابن جحاف كان قليل الخبرة في الحكم والسياسة، فلم تدم سياسته الا سنة وتعرضت بلنسية للحجر.

وعندما رآى ابن جحاف نفسه غير قادر على صد القنبيطور ولم يعرف ما يفعل، وقد اخذ بلنسية واهلها الخراب والجوع، استنجد بالمرابطين الا انه سلم بلنسية قبل وصولهم. عمد القنبيطور الى الحيلة

للتخلص من ابن جحاف حيث اتهمه انه قد اتخذ مالاً من القادر ابن ذي النون وان يطالب به، الى ان ابن جحاف لم يكن يملك مالاً فقد اصاب بلنسية الافلاس جراء الحصار الذي اصابها، فأمر القنبيطور باشعال النار في وسط بلنسية، وكان القاضي مفيداً فرماه في النار، ومعه بعض الرجال من اسرته وخاصته (ابن الابار، ١٩٨٥) (عذاري، ٢٠١٣) (ابن بسام، ١٩٨١).

وذكر ابن عذاري ما احداثه الحجر من اثار على بلنسية اذ يقول: ((عظم البلاء، وتضاعف الغلاء، واستوى في عدم القوت الفقراء والاغنياء، وامر ابن جحاف اقتحام الدور فحصاً عن القوت... وترفق سائر الناس بالجلود والاصماغ وعروق السوس، ومن دون هولاء بالفئران والقطط وجيف بني آدم. وهجم على نصراني وقع في الحفير فأخذ باليد ووزع لحمه، وجد الطاغية في احراق من يخرج من المدينة الى المحلة... فعبث فيهم بالقتل، وعلقت جثثهم في صوامع الارياض وبواسق الاشجار...)) (عذاري، ٢٠١٣).

فهذه احد ابشع الطرق التي تم الحجر بها على بلنسية من خلال تضييق الحصار على اهلها وتخريبها.

ثم استطاع المرابطون استرجاع بلنسية سنة (٤٩٥هـ/١١٠١م) (كولان، د . ت) فعلى الرغم من السيطرة الطويلة وصعوبة الاوضاع قام (محمد بن تاشفين) (المراكشي، ٢٠١٢) (عنان، ١٩٩٠) بالتوجه لتحرير بلنسية بأمر من امير المرابطين يوسف بن تاشفين، والجدير بالذكر ان القنبيطور قد توفي بسبب المرض سنة (٤٩٢هـ/١٠١١م) فاستلم الامر من بعده زوجته، التي طلبت المساعدة من الفونسو السادس، وعرضت عليه تسليم بلنسية له فدخلها سنة (٤٩٥هـ/١١٠٢م)، فاستمر المرابطون بين فترة واخرى بالقتال والتضييق على الفونسو الى ان تمكنوا من دخول بلنسية والسيطرة عليها سنة (٤٩٥هـ/١١٠١) (عنان، ١٩٩٠) (السامرائي وآخرون، د . ت).

- سرقسطة:

تعرضت مدينة سرقسطة الاندلسية كسابقتها من المدن الى الحجر للأسباب توسعية، واطماع شخصية، فلم تسلم من الحجر أثناء حكم الامويين في الاندلس، وكذلك الطوائف، وسنتطرق الى بعض الاحداث التي قد ارهقت مدينة سرقطة، وادت الى خرابها اثناء حجرها.

لا يمكن اغفال اهمية موقع مدينة سرقسطة، وحصانتها التي مكنت الطامعين، والمتمردين من اتخاذها قاعدة لهم، فهي تتميز من حيث الموقع اذ تقع شمال شرق الاندلس، وتعد من قواعد الاندلس المهمة، وتمتاز بوجود اسوارها المنيعة، ومبانيها الرفيعة، بالاضافة الى وجود اربعة ابواب لها، ويذكر الحميري ان سرقسطة واسعة الخطة لا يوجد مدينة اندلسية على غرارها مشابهة لخطتها (الحميري، ١٩٨٨).

تعرضت سرقسطة للحجر العسكري، من خلال فرض الحصار عليها والتضييق عليها من قبل الامير هشام بن عبدالرحمن، فقد حجر على هذه المدينة، لردع المتمردين الذين وقفوا ضد حكمه واتخذوا

من مدينة سرقسطة مقراً لهم، إذ تمرد بها (مطروح بن سليمان) (عذاري، ٢٠١٣) (الزركلي، ٢٠٠٢) سنة (١٧٢هـ/٧٨٨م)، فكان لابد من ابقاف هذا التمرد، إذ ارسل الامير هشام بن عبدالرحمن قائده (عبيدالله بن عثمان) (ابن بشكوال، ٢٠١٠) لحصار سرقسطة، فحاصرها سنة (١٧٥هـ/٧٩١م) وقد ألح عليها بالحصار حتى ضاق اهلها ذرعاً وسادت احوالها، وضج اهلها من تمادي الحصار الى ان توفي مطروح مقتولاً على يد بعض من يرافقه اثناء خروجه للصيد وارسل رأسه الى عبيدالله بن عثمان (عذاري، ٢٠١٣) (النويري، ١٤٢٣) (الزركلي، ٢٠٠٢).

كما تعرضت سرقسطة للحصار ايام حكم اسرة بني هود لها ابان عصر الطوائف، خلف المؤتمن على سرقسطة ولده (احمد المستعين) (سعيد، ١٩٥٥) (المقري، ١٩٩٧) ما كاد يبدأ حكمه حتى ألقى نفسه امام خطر الفونسو السادس، إذ لم ينهي الفونسو سيطرته على طليطلة حتى تحول الى سرقسطة، فسار اليها بقوات وضرب حولها الحصار سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) واقسم انه لن يتركها حتى تؤول اليه، إذ دامت محاصرته لها مدة سنة، فكان حصارها سنة (٤٧٨هـ/١٠٨٥م) وتم تحريرها على يد يوسف بن تاشفين سنة (٤٧٩هـ/١٠٨٦م). وتقص لنا الاخبار ان يوسف بن تاشفين الحق هزيمة ساحقة بالفونسو السادس، ادت الى اضعاف قوة النصارى (عنان، ١٩٩٠) (الحجي، ١٩٨١)، الى ان المصادر لم تذكر اثار الحجر على سرقسطة ولكن من الطبيعي ان حصاراً يدوم لعدة اشهر لابد ان يترك اثاراً مدمرة تفتك بالمدينة وتنهكها، وتأتي على ما بها من اقوات ومؤونة، وهنا ما يترك اثره السيء على السكان.

المبحث الثالث :الحصار العسكري لمدن غرب الاندلس

- اشبيلية:

تعرضت مدينة اشبيلية هي الاخرى الى الحصار (الحجر العسكري) منذ ايام الامويين، ولابد من التطرق الى موقع اشبيلية فهي تقع على ساحل المحيط الاطلسي، وتبعد عن قرطبة ثمانون ميلاً، وهي من المدن الاندلسية التي تتميز بمناعة اسوارها التي كانت سبباً لفرض الحصار عليها من اجل الحصول عليها. كما تتميز باقتصادها المتقدم لكثرة الاسواق فيها وتجارة الزيت الذي تتميز بوجوده فيها، لكثرة شجرة الزيتون، بالاضافة الى هذا فقد احاط بمدينة اشبيلية جبل الشرف وسمي بهذا الاسم لأنه يشرف على المدينة مما يجعله يمنحها اهمية في الموقع من حيث حصانتها (الادريسي، ١٤٠٩) (الحميري، ١٩٨٨). وان احاطة الاشجار بها جعل المقبلين اليها يضطرون الى انارة طريقهم بواسطة السُرج لرؤية الطريق.

تم الحجر على اشبيلية شهراً في عهد الامير الاموي عبدالرحمن الناصر سنة (٣٠١هـ/٩١٣م) عندما توفي صاحب اشبيلية (عبدالرحمن بن ابراهيم) (عذاري، ٢٠١٣). اراد اهل اشبيلية تقديم (أحمد بن مسلمة) (الضبي، ١٩٨٩) (الصفدي، ٢٠٠٠) لحكمهم، الا ان الناصر اراد احد رجاله وكان اخ عبدالرحمن بن ابراهيم وهو (محمد بن ابراهيم) (عذاري، ٢٠١٣) (ابن خلدون، ١٩٨١)، قد اعترض على اهل اشبيلية، فكان يريد الحكم له بعد اخيه، فسانده الناصر وارسل قواته لمحاصرة اشبيلية، واستطاع ان

يدخلها في جمادي الاولى سنة (٣٠١هـ/٩١٣م) (عذاري، ٢٠١٣) (ابن خلدون، ١٩٨١) (الحميري، ١٩٨٨).

تعرضت اشبيلية للحجر في عهد دول الطوائف فقد تعاون كل من بني حمود الذين كانوا حينها تحت حكم (يحيى بن علي) (الحميدي، ١٠٩٥) (الضبي، ١٩٨٩) وقرمونة بقيادة قائدهم (محمد بن عبدالله البرزالي) (ابن بسام، ١٩٨١) اذ خرج يحيى بن علي لمحاصرة اشبيلية وكان في ذلك الوقت صاحب اشبيلية (محمد بن عباد) (ابن خلدون، ١٩٨١) (السامرائي وآخرون، د . ت) فتمت محاصرة اشبيلية مدة طويلة ادى هذا الحصار الى حدوث ضجة في اشبيلية بسبب الجوع وقلة المؤنة، وظهر السأم واضحاً على اهل اشبيلية ومحمد بن عباد. وقد تم الاتفاق على تسليم الحصون والمدائن ليحيى بن حمود الا انهم قد تخلصوا من اخرهم عندما كان خارجاً وهو متنكراً عندما رأى خيلاً من بعيد الا انه كان كمين للتخلص منه من قبل محمد بن عبدالله البرزالي الذي استماله ابن عباد حينها، فتعثر فرس يحيى وسقط يحيى فأجهز عليه عبدالله البرزالي (النويري، ١٤٢٣) (ابن خلدون، ١٩٨١).

بعد ان استنجد ملوك الطوائف بالمرابطين كان لهذا الاستنجاد تداعياته الخطيرة على سلطان ملوك الطوائف في الاندلس، إذ ارسل يوسف بن تاشفين قائده (سير بن ابي بكر) (عنان، ١٩٩٠) لتملك من الاندلس، ثم توجه الى اشبيله وفرض الحجر عليها وحاصرها من جميع الجهات عام (٤٨٤هـ/١٠٩٠م) كان المرابطون قد عاثوا تخريباً في سور المدينة وتحصيناتها حتى دخل الخوف على اهلها، فقد عمد الجنود الى عمل ثغرة ودخلوا الى المدينة من خلالها، فلم يكن على ملك اشبيلية المعتمد بن عباد الى المواجهة فقتل منهم عدداً كثيراً ثم اصيب بسهم تحت يده، وسرعان ما تم غلق الثغرة الا انهم عمدو الى خطة اخرى وهي اشعال الحريق حول المدينة مما سبب الذعر والخوف الذي دخل الى قلوب الاشبيليين حتى مات الكثيرين، وهم يحاولون التخلص من هذا الحصار من خلال رمي انفسهم في النهر وخارج الاسوار (ابن الاثير، ١٢٣٢). فضعف موقف ابن عباد واهل اشبيلية فدخل المرابطون الى اشبيلية قاهرين لأبن عماد، واصوات البكاء ترتفع والحرمات تُنتهك والثياب سُلبت حتى خرج الناس من مساكنهم يسترون انفسهم بايديهم، واخذ المعتمد اسيراً معه اولاده وبناته وأخذت جميع امواله (ابن الاثير، ١٢٣٢) (ابي الخطيب، ١٩٧٥) (دوزي، ١٩٩٤) (عنان، ١٩٩٠).

المصادر

- ابن الاثير، ابي الحسن علي بن أبي الكرم محمد (٦٣هـ/١٢٣٢م)

١- الكامل في التاريخ، تح: عمر عبدالسلام، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.

- ابي الخطيب، لسان الدين (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٠م)

٢- الاحاطة في اخبار غرناطة، تح: محمد عبدالله عمان، ط١، مكتبي الخانجي، القاهرة، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٣- اعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلال من ملوك الاسلام، تح: إليفي بروفنسال، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٦م.

- النويري، احمد بن عبدالوهاب بن محمد بن عبدالدائم (٧٣٣هـ/١٣٣٢م).

٤- نهاية الآرب في فنون الادب، ط١، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

- ابن خلدون، عبدالرحمن (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)

٥- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم، ط١، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

- ابن بسام، ابو الحسن علي الشنتريني (٥٤٢هـ/١١٤٧م)

٦- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، تح: احسان عباس، ط١، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، ١٩٨١.

- الحميدي، ابو عبدالله محمد بن ابي الفتوح بن عبدالله الازوعي (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م)

٧- جذوة المقتبس في تاريخ علماء الاندلس، تح: ابراهيم الابياري، ط٢، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.

- الضبي، احمد بن يحيى بن عميرة (ت ٥٩٩هـ/١٢٠٣م)

٨- بغية الملتمس في تاريخ أهل الاندلس، تح: ابراهيم الابياري، ط١، دار الكتاب المصري، القاهرة، (١٤١٠هـ/١٩٨٩م).

- ابن عذاري، ابي العباس احمد بن حميد (ت: ٧١٢هـ/١٣١٢م)

٩- البيان المغرب في اخبار ملوك الاندلس والمغرب، تح: بشار عواد، ط١، دار المغرب الاسلامي، تونس (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م).

- الحميري، ابن عبدالمنعم (٩٥هـ/١٤٩٥م)

١٠- صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار، تح: إليفي بروفشمال، ط٢، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٨٨م.

- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبدالله (ت: ٧٦٤هـ/١٣٦٢م)

١١- الوافي بالوفيات، تح: احمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار احياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

- الادريسي، محمد بن محمد بن عبدالله بن ادريس الحسني (ت: ٥٦٠هـ/١١٦٤م)

١٢- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١، عالم الكتب للنشر، بيروت، ١٤٠٩هـ.

- المقري، احمد بن محمد أحمد بن يحيى ابو العباس التلمساني (ت: ١٤٠١هـ/١٦٣١م).

١٣- نفتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تح: إحسان عباس، ط٣، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م.

- ابن سعيد، علي بن موسى بن محمد بن عبدالملك (٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

١٤- المغرب في حلى المغرب، تح: د. شوقي ضيف، ط٣، دار المعارف القاهرة، ١٩٥٥م.

- ابن بشكوال، ابو القاسم خلف بن عبدالملك (ت: ٥٧٨هـ - ١١٨٢م).

١٥- الصلة في تاريخ أشمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدباءهم، تح: بشار عواد، ط١، دار الغرب الاسلامي، تونس، ٢٠١٠م.

- المراكشي، ابو عبدالله محمد بن عبدالملك الانصاري، (ت: ٧٠٣هـ/١٣٠٣م)

١٦- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تح: احسان عباس وآخرون، دار الكتاب الغرب الاسلامي، تونس، ٢٠١٢م.

- ابن الابار، محمد بن عبدالله بن ابي بكر (ت: ٦٥٦هـ/١٢٦٨م)

١٧- الحلة السراء، تح: حسين مؤنس، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م).

- ابن خاقان، الفتح بن محمد بن عبدالله القيسي (ت: ٥٢٨هـ/١١٣٤م).

١٨- قلائد العقيان في محاسن الرؤساء والقضاة والكتاب والأدباء والأعيان، المطبعة الاميرية، بولاق، ١٨٦٦م.

- ابن شاكر، محمد بن شاكر بن احمد (ت ٧٦٤هـ).

١٩- فوات الوفيات، تح: احسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣.

- ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد الظاهري (ت: ٤٥٦هـ/١٠٦٤م)

٢٠- جمهرة انساب العرب، تح: عبدالسلام، دار المعارف، مصر، ١٩٦٢م.

٢١- حدود العالم من المشرق الى المغرب، تح: السيد يوسف الهادي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ١٤٢٣هـ.

قائمة المراجع

- كولان

٢٢- الاندلس، ترجمة: ابراهيم حورشيد، دار الكتاب اللباني، بيروت.

- عباس، احسان

٢٣- تاريخ الادب الاندلسي، ط١، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٠م.

- بيضون، ابراهيم

٢٤- الدولة العربية في اسبانية من الفتح حتى سقوط الخلافة (٩٢-٤٢٢هـ)، ط٣، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٦م.

- السحيباني، محمد بن صالح

٢٥- الضعف المعنوي واثره في سقوط الأمم (عصر ملوك الطوائف في الاندلس، د. ط.).

- شبارو

٢٦- الاندلس من الفتح العربي المرصود الى الفردوس المفقود (٩١-٨٩٧هـ)، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢م.

- رحومة

٢٧- الخيانة السياسية لدولة في الاندلس منذ بداية عصر الدولة الأموية حتى نهاية عصر الموحدين (١٣٨-٦٦٨هـ)، الاسكندرية، ١٤٤١هـ.

- الحسيني، قاسم عبد سعدون

٢٨- حركة الاسترداد الاسبانية، ط١، مجمع الفحيص، عمان، ٢٠٢١م.

- الناصري، شهاب الدين احمد بن خالد

٢٩- الاستقصا لاخبار حول المغرب والاقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء.

- سالم، عبدالعزيز

٣٠- قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس، مؤسسة شباب الجامعة، د. ط، الاسكندرية، ١٩٩٧م.

- دوزي، رينهارت

٣١- المسلمون في الاندلس، ترجمة: د. حسين حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

- عنان، عبدالله

٣٢- دولة لاسلامفي الاندلس، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

- السامرائي وآخرون

٣٣- تاريخ العرب وحضارتهم في الاندلس، ط١، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، د. ت.

- الزركلي، خيرالدين بن محمود بن محمد بن علي

٣٤- اعلام الزركلي، ط٥، دار العلم للنشر، ٢٠٠٢م.

- الحجي، عبدالرحمن علي

٣٥- ٠التاريخ الاندلسي من الفتح الاسلامي حتى سقوط غرناطة (٩٢-٨٩٧هـ)، ط٢، دار القلم للنشر، دمشق، بيروت، ١٤٠٢هـ-١٩٨١م.